غزوة خَيْبَر

في محرم سنة ٧ هـ

كانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بُعد ستين أو ثمانين ميلاً من المدينة في جهة الشمال.

سبب الغزوة:

ولما كانت خيبر هي موطن الدس والتآمر، ومركز الاستفزازات العسكرية، ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت جديرة بالتفات المسلمين إليها.

ولا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزَّبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصال بالمنافقين، فألقوا المسلمين - بإجراءاتهم هذه - في محَن متواصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ.

وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بُعوث متوالية، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين، مثل: سلام بن أبي الحقيق، وأسير بن زارم.

مسير النبي ﷺ إلى خيبر:

قال ابن إسحاق:

حدثني الزُّهري عن عروة عن مروان بن الحكَم والمِسوَر بن مَخْرَمة، أنهما حدَّثاه جميعًا قالا:

انصرف رسولُ الله ﷺ عامَ الحديبية، فنزلت عليه سورةُ الفتح فيما بين مكة والمدينة، فأعطاه الله عز وجل فيها خَيْبَر ﴿**وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ**﴾(١).

(١) الفتح: ٢٠.

obeikandi.com

فقدم رسول الله ﷺ المدينة في ذي الحجة، فأقام بها حتى سار إلى خَيْبَر في المحرّم، فنزل بالرَّجيع[١] فتخوَّف أن تمدَّهم غَطَفَان، فبات حتى أصبح فَغَدا إليهم.

وقد ذكر ابن إسحاق أن غَطَفَان لمَّا سمعت بمَنْزل رسول الله ﷺ من خَيْبَر، جمعوا له، ثُمَّ خرجوا لِيُعاونوا يهود عليه، حتى إذا ساروا مرحلةً سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حِسًّا، ظنُّوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أهليهم وأموالهم، وخَلَّوْا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر.

دعاء الرسول ﷺ على مشارف خيبر:

قال ابن إسحاق:

حدثني من لا أتَّهم عن عطاء بن أبى مَرْوان الأسلمي، عن أبيه عن أبى مُعَتِّب بن عمرو أن رسول الله ﷺ لمَّا أَشْرَف على خَيْبَر قال لأصحابه - وأنا فيهم - قِفُوا، ثُمَّ قال:

«اللهم ربَّ السماوات وما أظْلَلْن، وربَّ الأرضينَ وما أقْلَلْنَ، وربَّ الشياطين وما أضْلَلْنَ، وربَّ الرياح وما أذْرَيْنَ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخيرَ أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشرِّ أهلها وشر ما فيها، أقدمِوا بسم الله».

قال: وكان يقولها ﷺ لكل قرية دخَلَها.

الرسول ﷺ يعطي الراية لعلي:

ومن أخبار خَيْبَر أن رسول الله ﷺ لَمَّا كانت ليلة الدخول إليها قال: لأعطين هذه الرَّاية غدًا رَجلاً يُحبُّ الله ورسولَه، ويحبُّه الله ورسولُه، يفتح الله على يديه.

(١) الرجيع: وادٍ بين خَيْبَر وغَطَفَان.

فبات الناسُ يَدُوكُون[١] أيُّهم يُعطَاها، فلما أصبح الناسُ، غَدَوْا على رسول الله ﷺ كُلُّهم يَرْجون أن يُعطاها.

فقال رسول الله ﷺ: أينَ عليُّ بن أبى طالب؟

فقالوا: يا رسول الله، هو يشتكى عينَه.

قال: «فأرسلوا إليه» فأُتىَ به، فبَصَقَ رسولُ الله ﷺ في عينيه، ودعا له، فَبَرَأَ حتَّى كأنْ لم يكن به وَجَعٌ.

فأعطاه الرَّايةَ، فقال: يا رسول الله، أقَاتلُهم حتى يكونوا مثلَنا؟

قال: انْفُذ على رِسْلك حتَّى تنزلَ بسَاحتهم، ثُمَّ ادْعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله، فوالله، لأن يهدى الله بك رَجُلاً واحداً خيرٌ من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم[٢].

افتتاح حصون خيبر:

افتُتِحَتْ حُصون خَيْبَر حصنًا حصنًا، فكان أوَّلُ حصن من حصونهم افتتح «حصن ناعم» وعنده قُتِلَ محمد بن مسلمة، أُلقيت عليه منه رَحَىً فقَتَلَتْه، ثُمَّ «القَمُوص» حصن بنى أبى الحُقيق.

وأصاب رسول الله منهم سبايا، منهن: «صفيةُ بنت حُيَى بن أخطب» سباها النبي ﷺ يوم خَيْبَر، فاصطفاها لنفسه، فأسلمتْ وأعتقها، وجعل عِتْقَها صداقها، وكان رسول الله ﷺ قد خيَّرها بين أن يعتقها فترجع إلى من بقى من أهلها، أو تُسلم فيتخذها لنفسه، فقالت: أختار الله ورسولَه.

قال ابن إسحاق:

---

(١) يدوكون: يخوضون في الحديث.

(٢) البخاري - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٧٢٤، ٢٧٨٧، كتاب المناقب، حديث رقم٣٤٢٥.

ولما افتتح رسول الله ﷺ من حصونهم ما افتتح، وحاز من الأموال ما حَاز، انتهوا إلى حصنيهم «الرَّطيح والسَّلالم» وكانا آخر حصون أهل خَيْبَر افتتاحًا، فحاصرهم رسول الله بضعَ عشرة ليلة، فخرج مرحبُ وهو يقول:

أنا الذي سَمَّتْنى أُمِّي مرحبُ   شاكى السلاح بطلٌ مُجرَّبُ

فبرز إليه علىٌّ بن أبى طالب وهو يقول:

أنا الذي سَمَّتْني أُمِّي حَيْدَره   كليث غابات كَريـه المَنْظَره

أُوفيهم بالصَّاع كَيْلَ السَّنْدَره[1]

فضرب مَرْحَباً ففلق هامته وكان الفتح[2].

ولما دنا على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من حصونهم، اطلع يهودىٌّ من رأس الحصن، فقال: من أنت؟

فقال: أنا علىٌّ بن أبى طالب.

فقال اليهودي: علوتُم وما أُنْزِلَ على موسى.

وقال الحاكم في المستدرك: «إن الأخبار متواترة بأسانيد كثيرة أنَّ قاتل مرحب أميرُ المؤمنين على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»[3].

رجل صَدَق الله فصدقه:

ومن أخبار خيبر أَنَّ رَجُلا مِنَ الأَعْرَابِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ، فَأَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ أَصْحَابِهِ.

فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةٌ غَنِمَ النَّبِيُّ ﷺ سَبْيًا، فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرْعَى ظَهْرَهُمْ

(١) أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٧٢.
(٢) المعنى أقتل الأعداء قتلا واسعا ذريعا، والسندرة: مكيال واسع.
(٣) المستدرك على الصحيحين: ٣/٤٩٤.

فَلَمَّا جَاءَ دَفعُوهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟

قَالُوا: قِسْمٌ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ

فَأَخَذَهُ، فَجَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: قَسَمْتُهُ لَكَ.

قَالَ: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى إِلَى هَاهُنَا - وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ - بِسَهْمٍ، فَأَمُوتَ، فَأَدْخُلَ الجَنَّةَ. فَقَالَ: إِنْ تَصْدُقِ اللَّهَ يَصْدُقْكَ

فَلَبِثُوا قَلِيلا، ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ يُحْمَلُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَهُوَ هُوَ؟ قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: صَدَقَ اللَّهَ فَصَدَقَهُ، ثُمَّ كَفَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي جُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَكَانَ فِيمَا ظَهَرَ مِنْ صَلَاتِهِ: اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقُتِلَ شَهِيدًا، أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ)[1].

أمر الشاة المسمومة:

ومن أحداث هذه الغزوة أن زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مِشْكم أهدت لِلنَّبِيِّ ﷺ شاةً قد سَمَّتها، وسألت: أيُّ اللحم أحبّ إليه؟ فقالوا: الذراع، فأكثرت من السُّمِّ في الذراع.

فلما انتهي الرسول من ذراعها، أخبره الذراع بأنه مسموم، فَلَفَظ الأكلة، ثُمَّ قال ﷺ:

اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ. فَجُمِعُوا لَهُ.

فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ أَبُوكُمْ؟

(١) النسائي - كتاب الجنائز، حديث رقم ١٩٢٧

قَالُوا: فُلانٌ.

فَقَالَ: كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلانٌ. قَالُوا: صَدَقْتَ.

قَالَ: فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟

فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا.

فَقَالَ لَهُمْ: مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟

قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اخْسَئُوا فِيهَا، وَاللَّهِ لا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا.

ثُمَّ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟

فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ.

قَالَ: هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟

قَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ)(١).

وجئ بالمرأة إلى رسول الله ﷺ، فَسَأَلَهَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَتْ: أَرَدْتُ لأَقْتُلَكَ. قَالَ: مَا كَانَ اللَّهُ لِيُسَلِّطَكِ عَلَيَّ. قَالُوا: أَلا نَقْتُلُهَا؟ قال: لا، ولم يتعرض لها، ولم يُعاقِبْها(٢).

مقْدم أصحاب السفينة:

وفي هذه الغزوة قدم عليه ابنُ عمِّه جعفرُ بن أبى طالب وأصحابُه ومعهم الأشعريون، عبدالله بن قيس أبو موسى وأصحابُه، وكان فيمن قدم معهم أسماء بنت عُميس.

---

(١) البخاري - كتاب الجزية والموادعة، حديث رقم ٢٩٣٣، كتاب الطب، حديث رقم ٥٣٣٢.

(٢) مسلم - كتاب السلام، حديث رقم ٤٠٦٠.

روى مسلمٌ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ:

«بَلَغَنَا مَخْرَجُ رسول الله ﷺ وَنَحْنُ بِالْيَمَنِ، فَخَرَجْنَا مُهَاجِرِينَ إِلَيْهِ أَنَا وَأَخَوَانِ لِي أَنَا أَصْغَرُهُمَا، أَحَدُهُمَا: أَبُو بُرْدَةَ، وَالآخَرُ: أَبُو رُهْمٍ. إِمَّا قَالَ: بِضْعًا، وَإِمَّا قَالَ: ثلاثَةً وَخَمْسِينَ، أَوِ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ رَجُلاً مِنْ قَوْمِي

قَالَ: فَرَكِبْنَا سَفِينَةً، فَأَلْقَتْنَا سَفِينَتُنَا إِلَى النَّجَاشِيِّ بِالْحَبَشَةِ، فَوَافَقْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابَهُ عِنْدَهُ.

فَقَالَ جَعْفَرٌ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَنَا هَاهُنَا، وَأَمَرَنَا بِالإِقَامَةِ، فَأَقِيمُوا مَعَنَا فَأَقَمْنَا مَعَهُ، حتَّى قَدِمْنَا جَمِيعًا

قَالَ: فَوَافَقْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ خَيْبَرَ، فَأَسْهَمَ لَنَا، أَوْ قَالَ: أَعْطَانَا مِنْهَا، وَمَا قَسَمَ لأَحَدٍ غَابَ عَنْ فَتْحِ خَيْبَرَ مِنْهَا شَيْئًا، إِلاَّ لِمَنْ شَهِدَ مَعَهُ، إِلاَّ لأَصْحَابِ سَفِينَتِنَا مَعَ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ، قَسَمَ لَهُمْ مَعَهُمْ.

قَالَ: فَكَانَ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُونَ لَنَا - يَعْنِي لأَهْلِ السَّفِينَةِ -: نَحْنُ سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ.

قَالَ: فَدَخَلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ - وَهِيَ مِمَّنْ قَدِمَ مَعَنَا - عَلَى حَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ زَائِرَةً، وَقَدْ كَانَتْ هَاجَرَتْ إِلَى النَّجَاشِيِّ فِيمَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ..

فَدَخَلَ عُمَرُ عَلَى حَفْصَةَ وَأَسْمَاءُ عِنْدَهَا، فَقَالَ عُمَرُ حِينَ رَأَى أَسْمَاءَ: مَنْ هَذِهِ؟

قَالَتْ: أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ.

قَالَ عُمَرُ: الْحَبَشِيَّةُ هَذِهِ؟ الْبَحْرِيَّةُ هَذِهِ؟

فَقَالَتْ: أَسْمَاءُ نَعَمْ.

فَقَالَ عُمَرُ: سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْكُمْ.

فَغَضِبَتْ، وَقَالَتْ كَلِمَةً:

كَذَبْتَ يَا عُمَرُ، كَلاَّ وَاللَّهِ، كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُطْعِمُ جَائِعَكُمْ، وَيَعِظُ جَاهِلَكُمْ، وَكُنَّا فِي دَارِ - أَوْ فِي أَرْضِ - الْبُعَدَاءِ الْبُغَضَاءِ فِي الْحَبَشَةِ، وَذَلِكَ فِي اللَّهِ وَفِي رَسُولِهِ.

وَأيمُ اللَّهِ، لا أَطْعَمُ طَعَامًا، ولا أَشْرَبُ شَرَابًا، حتَّى أَذْكُرَ مَا قُلْتَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ كُنَّا نُؤْذَى وَنُخَافُ، وَسَأَذْكُرُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَسْأَلُهُ.

وَوَاللَّهِ لا أَكْذِبُ، وَلا أَزِيغُ، وَلا أَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ.

قَالَ: فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّ عُمَرَ قَالَ كَذَا وَكَذَا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ، وَلَهُ وَلأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ - أَهْلَ السَّفِينَةِ - هِجْرَتَانِ».

قَالَتْ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَى وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ يَأْتُونِي أَرْسَالاً، يَسْأَلُونِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ، مَا مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ هُمْ بِهِ أَفْرَحُ وَلا أَعْظَمُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِمَّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

قَالَ أَبُو بُرْدَةَ: فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَى وَإِنَّهُ لَيَسْتَعِيدُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنِّي(١).

وقد ذكرت هذا الحديثَ من قبل، وها أنا ذا أذكره، وهو مما أُحِبُّ أن يُذكَرَ ولا يُنسى، وأن تُعرف دَلالتُه فيما نحن بصَدده من وقائع المدينة المُنَوَّرَة وفَضَائلها.

فإن الله قد جمع لها من ألَّف بين قلوبهم، فأحياهم، وجعل لهم نُوراً يمشون به في الناس، ففتح لهم، وفتح بهم، فكان تنافسهم في جميع أمرهم على مرضات ربِّهم لا على شيء سواه.

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٩٠٥، مسلم - كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٤٥٥٨.

وقد رأينا في هذه الغزوة كيف كانت مقاصدهم، وعلى أيٍّ شيء كان تنافُسُهم.

رأينا ذلك عندما قال الرسول ﷺ: «لأعطين هذه الرَّاية غدًا رَجلاً يُحبُّ الله ورسولَه، ويحبُّه الله ورسولُه».

فباتوا يتشوَّقون إلى هذه الراية، وينتظرون أيُّهم يُعْطَاهَا، وكُلُّ واحد منهم يَرْجو أن يُعطَاهَا.

ورأينا رجلاً من الأعراب آمن، وصَدَقَ في إيمانه، واتَّبعَ الرسولَ ﷺ، وطلب أن يُهاجر مع رسول الله، وأوصى الرسول به بعضَ أصحابه.

فلما كانت غزوةُ خَيْبَر، وغَنِم رسول الله ﷺ، فقَسَمه، وقَسَم لهذا الأعرابي، فلما أخذ قسمه جاء به إلى رسول الله ﷺ فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال: قَسْم قسمته لك.

قال: ما على هذا بايعتك، أو ما على هذا اتبعتُك، ولكن اتبعتُك على أن أُرْمَى هاهُنا – وأشار إلى حلْقه – بسهم، فأموت، فأدخل الجنة. فقال رسول الله ﷺ: إن تصدق الله يصدقك. ثُمَّ نهض إلى قتال العدو، فأُتى به إلى النبي ﷺ وهو مقتول: فقال: أهو هو؟ قالوا: نعم. قال: صدق الله فَصَدَقه.

وها نحن نرى من عَاد من هجرة طويلة، من عاد من الحبشة إلى المدينة المُنَوَّرَة عند فتح خَيْبَر.

ها نحن نراهم حين افتتح رسول الله ﷺ خَيْبَر، يُسْهم لهم وكأنهم كانوا حاضرين؛ لأن هجرتَهم وما أصابهم كان في الله وفي رسول الله.

جاءوا من هجرتهم إلى دار الإيمان وقُبَّة الإسلام، لا ليأخذوا راحتَهم، ويركَنُوا إلى رعاية أُسَرهم، وإنما جاءوا ليكونوا – حيث يُطلَب منهم – مُبَلِّغين

رسالةَ الله في العالمين، وهم يحفظون ما أنزل الله على رسوله ﷺ **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾**(١).

فبهؤلاء يكون البلاغ، وبهم يُعرف الحق عملاً وخُلُقًا، كما عُرف عن رسول الله ﷺ ورُئِيَ فيه «كان خُلُقُه القُرآن».

لا بد أن تكون المدينة المُنَوَّرَة - وفيها رسول الله ﷺ - جامعة لهم وموفدة لبُعوثهم مجاهدين، مُعَلِّمين، فاتحين، راشدين.

وأن تكون المدينة المُنَوَّرَة - وقد جمعت في وقائعها بين القرآن والسُّنة - حديثا ممتداً لا ينقطع للأجيال كلها، يدرسون الوقائع، ويقرءون ما أُنزل فيها من قرآن، ويرون ما كان للرسول ﷺ من بَيَان، فلا تكون دراستُهم لوقائع المدينة كدراستهم لأيِّ وقائع في أيِّ مكان أو زمان، بل تكون دراسة رُشْدٍ وعملٍ وحُسن تدبُّر لِمَا أُرسل به الرسول ﷺ، وجاء به القرآن.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾(٢).

فكيف تكون الأسوة به ﷺ بدون أن نعرف ما أُرسِلَ به وما دَعَى إليه، وما وقع له وما انتصر به؟!

إذن.. لا بُدَّ من الوقوف على الوقائع التي كانت في مكة من قبل، وما كان في المدينة بعد أن هاجر الرسول ﷺ إليها، ولم يَحُل بينه وبين العالم في البلاغ والتبشير والإنذار، وهو يخاطب الناس جميعًا بما أُمر به.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٣).

---

(١) الأعراف: ١٥٨ .
(٢) الأحزاب: ٢١ .
(٣) الأعراف: ١٥٨ .

لذلك كان الفتح بالحديبية أو بعدها، فتحاً في امتداد البلاغ، وكان جهادُ الرسول ﷺ ومَنْ معه قد اتَّسعت ساحتُه، وكان لا بُدَّ له من إعداد إنسانه، إنسانِ النَّصْر بصفاته وثباته.

وقد تمَّ ذلك في المدينة المُنَوَّرَة، إذ لم ينقطع عملُ مَنْ هاجر إليها، من جهاد صَادقٍ، وتدبير راشد يُرى فيه التعاون على البِّر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

ولا يكاد الإنسان - وهو يُحسن التدبُّر - يجد لحظةً واحدةً - لأولئك الذين صدقوا الله فصدقهم الله - بَعُدُوا فيها عن غايتهم، أو استُدرِجُوا ليكونوا تَبَعًا لهواهم أو هوى غيرهم، فلم تزدهم الشدائدُ وتتابُعُ الوقائع إلاَّ ثباتًا وإيمانًا وتسليمًا.

وما نذكره من وقائع المدينة لا نُريد به الحَصْرَ، وإنما الذي يعنينا أن نعرف ما تشتمل عليه بعض هذه الوقائع من بيان لسُنَن الله، وسُنَنُ الله في خَلْقه لا تتبدَّل ولا تتحوَّل ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾[1].

وإذا عُلِمَ ذلك استطاع الإنسان - بفضل ربِّه - أن يعرف سُبُلَ الفوز والنَّصْر، فيأخذ نفسَه به استقامةً واتباعًا، وأن يعرف سُبُل الهزيمة والبوار والخسران، فيستعيذ بالله - قولاً وعملاً - من اتِّبَاع هذه السُبُل التي تُؤدى إلى البوار والخسران.

وذاك هو البيان الذي أُمِرَ الرسولُ ﷺ أن يبلغه وأن يدعو إليه

﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[2].

---

(١) فاطر: ٤٣.

(٢) الأنعام: ١٥٣.

وكلَّما لازَمْنَا الرسولَ ﷺ وأَحْسَنَّا اتباعَة، عرفنا كيف كان تقديرُ الوقت عنده، وكيف كان العملُ في مواجهة الأحداث وهو يستقبل وحيَ السماء ويقوم بأداء ما أُمر به من إعداد النفوس وإبلاغها ما جاء من عند الله.

فلا نرى الرسولَ ﷺ ومَنْ معه - في أيِّ أمْرٍ كان - إلاَّ عابدين لخالق يعرفون فضلَه، ويُحسنُون ذِكْرَه، فلا يشغلون أنفسهم إلاَّ به، ولا يَرغبون في شيء إلاَّ في رجاء رحمته وابتغاء مرضاته، فلا يغيب عنهم في أيِّ أمرٍ - صَغُر أم كَبُر - أنَّهم خَلْقُه، وأنهم عائدون إليه ومحاسَبون بين يديه.

فكان عملُهم للآخرة إصلاحًا لدنياهم وطهارةً لحياتهم، في عدل واعتدال، ويُسْرٍ لا حَرَجَ فيه ولا تَكَلُّفَ معه.

بذلك لم تكن العبادة عندهم تكاليف في أوقات محدودة ودقائق معدودة، وإنَّما كانت العبادة لله في كُلِّ شيء: في نيَّاتهم، وأقوالهم، وأعمالهم، وروابطهم، وعلاقتهم بأنفسهم وبغيرهم.

كانت شاملة جامعة لكُلِّ شيء، فلا يُرى أحدٌ منهم ساجدًا في صلاة ومُفَرطًا في سَعْى أو عطاء.

بل يُرى كُلُّ شيء من أمرهم - حتى ما يُسِرُّونَه في أنفسهم - خالصًا لله، لا لأحدٍ سواه.

بذلك بلَّغُوا كما بلَّغ رسولُهم، وحُفِظ لهم الذكرُ ليحفظوه منهج عمل للحياة ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[1].

---

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

غزوات وسرايا بعد خيبر:

لقد كان بين غزوة خَيْبَر وعُمرة القضاء فترة زمنيَّة مُحَدَّدة، عمل فيها المسلمون أعمالاً لا يكاد الوقت يتَّسع لها، لولا ما أعطاهم من عزائم لا تَمَلُّ ولا تَهُون، ولا تتوقف عن صِدْق الاستجابة لله وللرسول.

قال ابن إسحاق:

فلمَّا رجع رسولُ الله ﷺ إلى المدينة من خَيْبَر، أقام بها شهري ربيع وجُمَادَتَيْن ورجباً وشعبانَ ورمضانَ وشوَّالاً، يبعث فيما بين ذلك من غزوه وسراياه.

ثم خرج في ذي القعدةَ - في الشهر الذي صَدَّه فيه المشركون - مُعتمراً عُمرة القضاء مكان عُمْرَته التي صَدُّوه عنها.

وهذه السرايا هي:

١- **سريَّة أبى بكر الصديق** رضي الله عنه: إلى نَجْد قِبَل بنى فزارة ومعه سلمةُ بن الأكوع، فوقع في سهمه جاريةٌ حسناءُ، فاستَوْهَبَهَا رسول الله ﷺ، وفادى بها أسرى من المسلمين كانوا بمكة.

٢- **سريَّة عمر بن الخطاب** رضي الله عنه: في ثلاثين راكبًا نحو هَوَازن، فجاءهم الخَبَرُ فهربوا، وجاءوا محالَّهُم، فلم يلق منهم أحدًا فانصرف راجعًا إلى المدينة.

٣- **سريَّة عبدالله بن رواحة:** في ثلاثين راكبًا إلى يسير بن رزام اليهودي.

٤- **سريَّة بشير بن سعد الأنصاري:** إلى بنى مُرَّة بفَدَك في ثلاثين رجلاً.

ولنقف وقفةً يسيرة عند سريَّة من هذه السرايا - وما أكثرها - قبل أن نصل إلى عُمرة القضاء.

نقف عند سريَّة عبدالله بن حذافة السَّهْمي.

ثبت في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «نزل قول الله تعالى: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ**

منْكُمْ﴾ فِي عَبْدِاللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ»(١).

وفي مسلم عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

«بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْمَعُوا لَهُ وَيُطِيعُوا، فَأَغْضَبُوهُ فِي شَيْءٍ، فَقَالَ: اجْمَعُوا لِي حَطَبًا، فَجَمَعُوا لَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقَدُوا، ثُمَّ قَالَ: أَلَمْ يَأْمُرْكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَسْمَعُوا لِي وَتُطِيعُوا؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَادْخُلُوهَا. قَالَ: فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَقَالُوا: إِنَّمَا فَرَرْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ النَّارِ. فَكَانُوا كَذَلِكَ، وَسَكَنَ غَضَبُهُ، وَطُفِئَتِ النَّارُ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»(٢).

وهذا هو عبدالله بن حذافة السهمي.

فإن قيل: فلو دخلوها دخلوها طاعة لله ورسوله في ظنِّهم، فكانوا متأوِّلين مُخطئين، فكيف يُخلَّدون فيها؟

قيل: لما كان إلقاءُ نفوسِهم في النار معصيةً يكونون بها قاتلي أنفسهم؛ فهمُّوا بالمبادرة إليها من غير اجتهاد منهم، هل هو طاعةٌ وقربة، أم معصية كانوا مُقْدمين على ما هو محرَّمٌ عليهم؟

ولا تَسُوغُ طاعةُ وليِّ الأمر فيه؛ لأنه لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق

فكانت طاعة مَنْ أمرهم بدخول النار معصيةً لله ورسوله.

فكانت هذه الطاعة هي سببُ العقوبة؛ لأنها نَفْس المعصية، فلو دخلوها لكانوا عُصاةً لله ورسوله، وإن كانوا مطيعين لولى الأمر.

---

(١) البخاري - كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٢١٨، مسلم - كتاب الإمارة، حديث رقم ٣٤١٦.
(٢) مسلم - كتاب الإمارة، حديث رقم ٣٤٢٥.

فلم تدفع طاعتُهم لولى الأمر معصيتَهم لله ورسوله؛ لأنهم قد علموا أن من قَتَل نَفْسه فهو مُستَحقٌّ للوعيد، والله قد نهاهم عن قَتْل أنفسهم، فليس لهم أن يُقْدموا على هذا النَّهي طاعةً لِمَن لا تجب طاعتُه إلاَّ في المعروف.

فإذا كان هذا حُكْمُ مَنْ عَذَّب نفسه طاعة لولى الأمر؛ فكيف مَن عذَّب مسلمًا لا يجوز تعذيبُه طاعة لولى الأمر؟

وأيضا فإذا كان الصحابة المذكورون لو دخلوها لَمَا خرجوا منها - مع قَصْدهم طاعةَ الله ورسوله بذلك الدخول - فكيف بِمَنْ حَمَلَهُ على ما لا يجوز من الطاعة الرغبةُ والرهبةُ الدنيويةُ؟

«إنما الطاعة في المعروف» ضوابط وحدود، لا يمكن أن تُتَعدَّى أو يُطاع من يُريد أن يتعدَّى.

*****

obeikandl.com